تجلّيات أيديولوجيّة في عالم الترجميّة

نبيهة مكتبي
جامعة سان جوزف، دبي

التلخيص
غالبًا ما يسعى المترجم إلى تحقيق الحياد المطلق تجاه النص الذي يعمل على ترجمته. لكن إلى أي مدى يمكن تحقيق هذا الحياد، وما هي المسافة التي قد تفصل المترجم عن النص؟ فالمترجم عرضة لعوامل متعددة منها ثقافية أو أيديولوجية أو نفسية، من شأنها أن تؤثر في حياده. من هذا المنطلق، يسلّط هذا المقال الضوء على تأثير العامل الأيديولوجي على وجه التحديد في عملية الترجمة، إذ يستعرض الأيديولوجيات المختلفة التي قد تؤثر في عمل المترجم، بشكل مباشر أو غير مباشر، بوعي منه أو بغير وعي، وصولًا إلى تجليات هذه التأثيرات على النص المترجم من جوانب عدّة.

الكلمات المفاتيح: الأيديولوجيا، الحياد، السلطة، الأمانة

Abstract
Most of the time, translators strive to achieve absolute neutrality towards the text they are translating. However, to what extent can this neutrality be achieved, and what is the distance that may separate the translator from the text? Translators can be affected by multiple factors, including cultural, ideological, and psychological factors that can influence their neutrality. In view of that, this article sheds light on the impact of ideological factors on the translation process. It examines various ideologies that may affect the work of the translator, directly or indirectly, consciously, or unconsciously, and ultimately, how these influences manifest in the translated text.

Keywords: Ideology, neutrality, power, fidelity

١. المقدمة

عادة ما يحاول المترجم أن يبقى أمينًا للكاتب والنص المصدر قدر المستطاع حتى لا يرى القارئ على صفحات النص الهدف سوى بصمات الكاتب، ويسعى المترجم إلى أن يكون حياديًا، ليسلّم النص الهدف إلى قارئه من دون أن يترك بصماته عليه، حتى لا يرى هذا الأخير أن مترجمًا قد مرّ على صفحاته. بيد أن هذا الحياد المطلق شبه مستحيل، فالمترجم يتأثر بعوامل داخلية وأخرى خارجية قد تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر، بوعي منه أو من غير وعي، في عملية اتخاذه القرارات، وبالتالي في حياده.

تتعدد العوامل التي تؤثر في عملية الترجمة وعلى المترجم، فمنها الثقافية ومنها النفسية والأيديولوجية.

ويعتبر لوفيفير أنّه "في حال نشوء نزاع ما بين الاعتبارات اللغوية والاعتبارات ذات الطابع الأيديولوجي... في أي مرحلة من مراحل عملية الترجمة، فإن الأخيرة هي التي تطغى" (Lefevere, 1992, p. 39).

إلى أي مدى إذًا يمكن للأيديولوجيا أن تؤثر في عمل المترجم، وإلى أي مدى يمكن التحكم بها؟

يُعتبر العامل الأيديولوجي على وجه التحديد من أبرز العوامل التي كانت ولا زالت تؤثر في عملية الترجمة. فعلى مر العصور ساهمت الأيديولوجيا في تغيير ملامح النص الهدف. وإذا ما تناولنا الترجمة بآلياتها التي تقوم على نقل المعنى من لغة إلى أخرى، وبمعزل عن الاستراتيجية المتّبعة وطريقة اختيار المصطلحات وأسلوب الدراسة العملية ككل، للاحظنا أن عملية الترجمة بحد ذاتها تتأثر بالعامل الأيديولوجي. فلطالما كان لهذا العامل دور في تحديد النصوص التي تُترجم، أو منع نصوص أخرى من الترجمة، أو اختيار مترجم دون آخر، أو كان العامل الأيديولوجي فاعلًا في اختيار اللغة المصدر واللغة الهدف وهي جميعها عوامل تتضافر لتجعل من الأيديولوجيا أحد العناصر المؤثرة في الترجمة.

إذ يشير الكاتب لويس كيلي (Louis Kelly) إلى أنه "من الممكن إعادة فهم كل تاريخ الترجمة من خلال اعتماد وجهة نظر أيديولوجية أو سياسية" (Guidère, 2010, p. 50). وبذلك يكون عالم الترجمية قد شهد توسعًا في إطار الاهتمام بالعلاقة ما بين الترجمة والأيديولوجيا والسياسة والسلطة في فترات متلاحقة.

ونظرًا لأهمية أثر الأيديولوجيا في الترجمة، وضع بعض الباحثين في الترجمية معاييرَ لتحديد ما إذا كانت الترجمة تحمل طابعًا أيديولوجيًا أم لا، فيرى فرنسوا

راستييه (Francois Rastier) أن "الترجمة تُعتبر أيديولوجية حين تخرج عن إطار دورها النقدي ولا تلتزم بالمسافة الضرورية" (Guillaume, 2016, p. 7).

لكن كيف يمكننا تحديد هذه المسافة؟ وهل هي قابلة للقياس؟

٢. مفهوم الأيديولوجيا

صاغ المفكّر الفرنسي أنطوان دو تراسي (Antoine Destutt de Tracy) مصطلح "أيديولوجيا"، المشتق من اليونانية القديمة ويعني علم الأفكار، واستخدمه للمرة الأولى في العام ١٧٩٨ (Tracy De, 1993, p. 310) للدلالة على دراسة أفكار الإنسان دراسة عمليّة، ثم أعاد ترتيب العلوم من حيث الأهمية معطيًا للأيديولوجيا الصدارة التي كان يحتلها علم اللاهوت، في سعي منه لتكون الأيديولوجيا، أو علم الأفكار، بمثابة قاعدة لجميع العلوم. بيد أن هذا المصطلح لم يحمل التعريف نفسه لوقت طويل، فلم يعد يشير فقط إلى علم دراسة الأفكار، بل يمكن القول إن تعريف المصطلح قد اتّخذ منحى مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي رسمه دو تراسي.

ففي عهد نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte)، اتخذ المصطلح طابعًا سياسيًا. إذ ربط بونابرت ما بين الأيديولوجيا والأشخاص الذين وقفوا بوجه حكمه، وهم فعليًّا رجال العلم والفكر، ومن ضمنهم دو تراسي، الذين دعموا نابليون في بداياته ثم تخلّوا عنه. فاعتبر أن الأيديولوجيا هي "التفاني اللاعقلاني للمبادئ الديمقراطية" (Knight, 2006, p. 619)، في حين أنّ الأيديولوجيين لا يعرفون إلا معارضة الحكم مهما كان. فأصبح الأيديولوجي "مرادفًا للمتلاعب بالأفكار، وصاحب الكلام العبثي والغامض، والخطيب المتفلسف، وصانع الأوهام، البعيد عن الواقع ومشاكله الملموسة" [1](Macheray, 2013. p. 87-109). ثم تبدّل مفهوم الأيديولوجيا مرة أخرى مع فلسفة كارل ماركس حيث ربط هذا المفهوم بالطبقات الاجتماعية والسلطة وبالوضع الاقتصادي والمادي، ووصف الأيديولوجيا بالوعي الزائف أو الكاذب، عبر ربطها بالرأسمالية، معتبرًا أن وظيفتها الحقيقية هي خدمة مصالح الطبقة الحاكمة وليس عامة الشعب.

بناءً على ما تقدّم، يمكن القول إن مصطلح الأيديولوجيا منذ وضعه دو تراسي قد شهد تبدلًا جذريًا، حيث اكتسب في كل حقبة مفهومًا مغايرًا.

وفي عصرنا هذا، توسّع نطاق استخدام مصطلح "الأيديولوجيا"، حيث بات يُشير

[1] « Idéologue est devenu alors, au prix d'une péjoratisation du terme qui en marquera ensuite en profondeur l'usage, synonyme de manipulateur d'idées, vain et fumeux phraseur, péroreur et philosophailleur, fauteur d'illusion, qui se tient à distance de la réalité et de ses problèmes concrets ».

إلى مجموعة من المعتقدات والقناعات. يُعرّف فان ديك (Tuen A. Van Dijk)، الذي عُني بدراسة الأيديولوجيا بشكل عام وتأثيرها في الخطاب بشكل خاص، الأيديولوجيا على أنها نظام معتقدات تحدد الهوية الاجتماعية لمجموعة معيّنة في مجتمع محدد، أي هي معتقدات اجتماعية أساسية ذات طابع عام ومجرد إلى حد ما (Van Dijk, 2006, p. 116).

ونظرًا لانتشار هذا المصطلح وكثرة استخدامه في مجالات شتى، كان لا بد من إيجاد المرادف له في كل لغة من لغات العالم. ففي عالمنا العربي، اقترح عبد الله العروي تعريب المصطلح وإدخاله في نظام الصرف العربي، فاستخدم مصطلح "أدلوجة"، مثل أدلوجة عصر النهضة أو أدلوجة حزب ما، وهو يقول إنّه ينظر إلى الأمر "نظرة أدلوجية" (العروي، ٢٠١٢، ص.٩-١٠). غير أن استخدام هذا المصطلح بقي محدودًا، فيما تمّ اعتماد مصطلح "أيديولوجيا" على نطاق واسع في النصوص العربية للإشارة إلى هذا المفهوم.

عند دراسة الأيديولوجيا، يتبيّن لنا أن المفهوم السياسي لهذا المصطلح هو الأكثر شيوعًا على صعيد النظم السياسية، مثل الشيوعية والرأسمالية على سبيل المثال. بيد أن الأيديولوجيا قد تتجلى أيضًا على الصعيدين الديني أو الاجتماعي والديني، حتى إن هذين الشقين قد يتداخلان إلى حدّ كبير. فعلى الصعيد الاجتماعي، يمكن أن تتجلّى الأيديولوجيا في تأييد الشخص أو مناهضته للإجهاض أو المساواة بين الرجل والمرأة أو لحكم الإعدام، أو غيرها من الموضوعات التي تمسّ المجتمع في حياته اليومية، بعيدًا عن الشؤون السياسية.

٣. الأثر الأيديولوجي في عملية الترجمة

إن عمل المترجم لا يقتصر على نقل مفردات النص من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف، بل يتعدى ذلك إلى نقل معانيه الظاهرة والكامنة، فضلًا عن الالتزام بروح النص. بالتالي، فإن مفهوم المسافة هذا مفهوم دقيق جدًا. فإن ابتعد المترجم عن الفهم الدقيق للنص ولم يغص في أعماقه، لن يتمكن من إيصال روح النص إلى القارئ الهدف، وستأتي ترجمته أشبه بترجمة آلية تكتفي بنقل التعابير والجمل. أما في حال غاص المترجم في أعماق النص المصدر، فهو بذلك يشعر في مرحلة من المراحل بأنه يمتلك مفاتيحه فيعطيه صبغة جديدة قد لا تتوافق مع الهدف الذي أراده الكاتب من النص في بادئ الأمر.

فالمترجم، وإن كان دوره يحتّم عليه ألا يقف متفرجًا بعيدًا عن نصه، لكن عليه في الوقت عينه أن يتنبه إلى المسافة التي تفصله عن الخط الأحمر، إن صح التعبير،

الذي رسمه الكاتب حول نصه، وهو ما عالجته ماريان لودرير (Marianne Lederer) قائلة: "تقع على عاتق المترجم مهمة احتساب نطاق المناورة الذي سيعمل ضمنه" (Guillaume, 2016, p. 14). وهي بذلك تقرّ بالعوامل التي تؤثر جميعها في المسافة الفاصلة ما بين المترجم ونصّه في مراحل الترجمة المتعددة. من جهتها، تذهب ماريا تيموسكو (Tymoczko Maria) أبعد من ذلك، إذ تعتبر أن الترجمة ليست مجرد نقل للمعنى في إطار من الأمانة للنص المصدر، بل هي تقوم على عملية اختيار واعٍ ومتعمد، وحتى تقوم في بعض الأحيان على تزوير المعلومات أو رفضها (Tymoczko, Gentzlier, 2002, p. xxi).

وفيما عرّف توين فان دايك (Teun A. Van Dijk) الأيديولوجيا على أنها نظام معتقدات تحدد الهوية الاجتماعية لمجموعة معيّنة في مجتمع محدّد، أي أنها معتقدات اجتماعية أساسية ذات طابع عام ومجرّد إلى حدّ ما (Van Dijk, 2006, p. 116) رافضًا وجود الأيديولوجيات الشخصية أو الفردية، طرح غرانت (Colin B. Grant) مفهوم الأكسيولوجيا ويعرّفه بأنه "نظام أيديولوجي شخصي يجسّد جوانب عدّة من معتقدات وقيم ذاتية..." (Munday, Cunico, 2007, p. 146). بالتالي، يبدو أن أثر الأيديولوجيا ينقسم إلى شقين، الأول شخصي والثاني اجتماعي عام. بالنسبة للشق الأول، فهو يقوم على القناعات الشخصية، أما الثاني، فهو يرتكز على التفكير السائد في المجتمع ككل.

وبشكل أكثر دقة يمكننا القول إنه عند الحديث عن تأثير العامل الأيديولوجي في حياد المترجم يرتسم أمامنا مربّع يضمّ مختلف الأيديولوجيات التي تؤثر على عمله، يكون المترجم في وسطه. فالمترجم لا يتأثّر فقط بمعتقداته وقناعاته الشخصية، بل يكون وسط المربّع محاطًا بأربع أيديولوجيات تؤثّر في عمله.

ويتجلى الفارق بين مترجم وآخر في ضبط الإيقاع وإيجاد التوازن بين هذه الأيديولوجيات ليبقى حياديًا قدر الإمكان.

١.٣. أيديولوجيا الكاتب/ النص المصدر

تقوم عملية الترجمة على نقل الرسالة التي يحملها النص المصدر إلى اللغة الهدف. فإن كانت الرسالة تحمل طابعًا أيديولوجيًا، فإن هذه الأيديولوجيا ستؤثر بالتأكيد على عمل المترجم، على اعتبار أن الأمانة للنص المصدر هي من أبرز المرتكزات في الترجمة. وعليه، يكون جليًا بالنسبة إلينا أنه على المترجم ألا يتأثر سوى بأيديولوجيا الكاتب أو النص المصدر. فإن كان النص على سبيل المثال عبارة عن مقالة بالإنجليزية عن فلسطين المحتلّة تحمل وجهة نظر مؤيّدة لعمليات "الاستيطان"، عندئذ لن يتمكن المترجم من تهميش هذه الأيديولوجيا، فهي في صميم رسالة النص التي يُؤتمن على نقلها. فالمترجم موصى بالأمانة للنص المصدر والكاتب. وتلك الأمانة المطلوبة للنص المصدر ليست بجديدة في عالم الترجمية.

٢.٣. أيديولوجيا السلطة (أو راعي الترجمة)

ختم دو بيلي (Joachim Du Bellay) توصياته الموجهة إلى المترجمين بقوله: "إن ما قلته غير موجّه إلى أولئك الذي يترجمون لأشهر الكتّاب اليونانيين اللاتينيين بناءً على أمر من أمير أو لورد عظيم، بما أن الطاعة التي يدين بها الشخص لهؤلاء لا تقبل أيّ عذر" (Lefevere, 2003, 7).

وفي الإطار نفسه، في عمل لجون تريفيزا (John Trevisa) تحت عنوان "حديث بين أحد اللوردات وأحد الكتّاب حول الترجمة" أبرز اللورد موقفه الصريح والواضح من الترجمة، إذ أخبر الكاتب بأنه يدفع "للزمّار" ليسمع ما يريد من أنغام (لوفيفر، ٢٠٠٨، ١٥٧). وهو بذلك قد جعل من المترجم مجرّد "زمّار" تتراقص كلماته على الإيقاع الذي تحدده السلطة. كأنه أمسى بمثابة أداة في يد السلطة ينفذ أوامرها وتتماشى ترجمته مع رغباتها.

تتجلى معالم بصمة السلطة بدءًا من تحديد ما هو مسموح وما هو ممنوع، وصولاً إلى دورها في اختيار المترجم، مرورًا بانتقاء النصوص، فضلًا عن التعدي على حريات المترجم عبر الاختيار الالزامي لمنهجيات الترجمة، إلى جانب اختيار اللغة المُترجم منها.

فالمترجمون، كما يصفهم أندريه لوفيفر يميلون "إلى التمتع بحرية محدودة نسبيًا في تعاملهم مع راعي الترجمة، على الأقل إذا أرادوا أن تُنشر ترجماتهم" (Lefevere, 2003, p. 19). ومن الملاحظ أنه يولي أهمية كبرى لدور "راعي الترجمة"، إذ يعتبر أن المترجم إن لم يلتزم بالقيود التي يفرضها راعي الترجمة، أكانت سلطة سياسية أو دار نشر، فإن ترجمته لن تصل إلى الجمهور أو قد

تصل عبر طرق ملتوية. ويُعرّف لوفيفر مفهوم الرعاية في السياق الأدبي على أنه "ما يشبه السلطة (أشخاص، مؤسسات) التي يمكنها تعزيز أو إعاقة قراءة الأدب وكتابته وإعادة كتابته" (Lefevere, 2003, p. 15). وبذلك، يمكن ممارسة الرعاية من قبل الأشخاص والجماعات والمؤسسات والطبقات الاجتماعية العليا والأحزاب والمنظمات السياسية والناشرين ووسائل الإعلام والأخبار والأنظمة السياسية. الأمثلة المعاصرة في هذا الإطار ليست بقليلة ويختبرها المترجمون المحترفون كلّ يوم، سواء مع دور النشر أو المؤسسات الأخرى التي يعملون معها.

٣.٣. أيديولوجيا المجتمع/ القارئ الهدف

إن قارئ النص الهدف ليس نفسه قارئ النص المصدر، فكل منهما يأتي من خلفية اجتماعية وثقافية وسياسية، وبالتالي، أيديولوجية مختلفة. بناءً عليه، هو لن يتلقى النص بالطريقة عينها التي يتلقفها قارئ النص المصدر. لذا يجد المترجم نفسه، بشكل مباشر أو غير مباشر، مرغمًا على أخذ أيديولوجيا قارئ النص الهدف بعين الاعتبار.

فالترجمة مقيّدة بعوامل كثيرة، مثل السياق الاجتماعي والثقافي والأيديولوجي، الذي يحدد إلى حدّ كبير اختيار النصوص وهدف المترجم من عملية الترجمة والاستراتيجية التي يتّبعها في خلالها.

فقد تتأثر عملية الترجمة بنوع آخر من الأيديولوجيا، يقوم على التفكير السائد في المجتمع والذي قد يطبع الترجمة بطابع غير حياديّ بشكل أو بآخر. فقد يكون المترجم واعيًا أو غير واعٍ لهذا التأثير في نصه. وقد يكون مدركًا للتوجه الأيديولوجي الذي يقوم ببثه في النص عبر انتقاء مصطلحات معيّنة دون غيرها، أو قد يكون غير واعٍ لذلك، فينتقي مصطلحات قد تكون مشحونة أيديولوجيًا ولكنها تبدو له حياديّةً، خاصة عندما تكون الأيديولوجيا السائدة قد وصلت إلى درجة من الانصهار في الفكر الشائع حتى باتت تبدو له حياديّة.

٤.٣. أيديولوجيا المترجم

يمكن أن نطلق على أيديولوجيا المترجم اسم الأيديولوجيا الفردية إن صح التعبير. فهي لها الدور المتقدم في توجيه عملية الترجمة، وهي تختلف بدرجة تأثيرها وفقًا لقدرة المترجم على التحكم بها ومدى قدرته على السيطرة عليها في إطار الالتزام بالمهنية العملية في الترجمة.

تبدأ عملية الترجمة بعملية القراءة، إذ يعتمر المترجم قبعة القارئ، فيقرأ النص المصدر مثله مثل أي قارئ عادي لكي يكوّن عن النص انطباعًا أوليًا. وتختلف

كيفية تلقي النص من قارئ لآخر بناءً على عامل شخصي محض. ومن ثم يتبلور فهم المترجم للنص بناءً على مخزونه اللغوي والمعرفي ومعتقداته وأيديولوجيته وشخصيته والتجارب التي خاضها في حياته.

ولا تتجلى أيديولوجيا المترجم فقط من خلال اختياره المقاربة التي يتّبعها في ترجمة النص، ولا في المصطلحات التي يعتمدها، بل إنها قد تكون جليّة واضحة المعالم في المقدّمات التي يصوغها بعض المترجمين للكتب التي يترجمونها، كما من خلال الملاحظات التي يضيفها المترجم في الحاشية، والتي تهدف بشكل عام إلى توضيح الفكرة المطروحة لا سيّما على الصعيد الثقافي، إلا أنها غالبًا ما تحمل أيضًا رأي المترجم وقناعاته.

نذكر على سبيل المثال، إحدى ترجمات كتاب "الكويت وجاراتها" (Dickson، ١٩٥٦) للكاتب هارولد ديكسون الذي يؤرخ لمرحلة من تاريخ الكويت وقد شغل منصب الوكيل السياسي البريطاني فيها. وتُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بنسختين، الأولى حُظرت في الكويت (Dickinson, 1990)، أما الثانية (Dickinson, 1995)، والتي نُشرت داخلها، فيمكن للقارئ أن يرى البصمات الأيديولوجية على صفحاتها، من خلال المصطلحات المستخدمة والتي تحرّف إلى حد كبير المعنى المقصود.

والتدخل الأيديولوجي لم يقتصر على النص المترجم، ففي مقدمة الكتاب المترجم (Dickinson, 1995)، تورد المترجمة الآتي: "الكتاب في الحقيقة يمثل رأي كاتبه في ذلك الوقت رغم أن المترجم يتعاطف كما يتعاطف مع الكويتيين في أحاسيس المؤلف نحو الكويت" (Dickinson, 1995, p. 305). وكأننا نلتمس شعورًا بالذنب جرّاء ترجمة الكتاب، فتظهر لنا المترجمة تبرر ترجمتها وتضع نفسها خارج إطار رأي الكاتب. كما تترك المترجمة بصمتها الأيديولوجية من خلال حاشية المترجم التي تلجأ إليها. فتورد في إحداها: "لسنا معه في هذا الرأي وهو رأي المسئولين البريطانين المنحازين لابن سعود." (Dickinson, 1995, p. 305)

فالمترجمة لم توافق الكاتب رأيه الوارد في هذه الفقرة. لذا، وبعد أن ذكرت في المقدمة أن الكتاب يعبّر عن رأي الكاتب فقط، عادت لتؤكد على ذلك مجددًا عبر حاشية المترجم التي تقحمها في النص معبّرة من خلالها عن معارضتها لهذا الرأي واصفة المسؤولين البريطانيين بـ "المنحازين".

٤. تجليات تأثير العامل الأيديولوجي

١.٤. اختيار النصوص

إن اختيار النصوص التي يُراد ترجمتها هو المؤشّر الأوّل على العامل الأيديولوجي. فقد تشجّع السلطة، ترجمة بعض النصوص وتمنع ترجمة بعضها الآخر. ففي كثير من الأحيان يتم اختيار النصوص لتحقيق هدف ما: إمّا لبناء هويّة قومية، أو تعزيزًا لتوجّه سياسي بمواجهة تيارات معارضة وغير ذلك. في هذا الإطار، يُشكّل الاتحاد السوفياتي خير دليل على تأثير الحركة السياسية ودورها في اختيار النصوص. فقد كان من مقتضيات نشر الأيديولوجيا الشيوعية الجديدة في مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي أن يُصار إلى ترجمة الأعمال الماركسية إلى لغة السكان غير الناطقين بها، ممن انضمّوا حديثًا إلى الاتحاد، ما أسهم في تصاعد ملحوظ لترجمة هذا النوع من النصوص (Popa, 2010).

وفي الواقع، إن الوصول إلى فرض توجه سياسي ما، يتطلب تشجيع حركة ترجمة النصوص والكتب التي تفسّر أيديولوجيا الحزب الحاكم وتدعمها. كذلك في المقلب الآخر، نجد أن عملية اختيار النصوص شكّلت بدورها الركن الأساس لمحاربة توجّه سياسي، عبر تشجيع ترجمة النصوص المعارضة لسياسة ما، أو حظر ترجمة النصوص المؤيّدة لها. والأمر مشابه لسلطة راعي الترجمة، الذي يلجأ إلى اختيار النصوص التي تتماشى مع توجّهاته وتتوافق ونهج عمله. وهذا ما حصل في البرازيل في العام ١٩٤١ على سبيل المثال، عندما قدّم المدّعي العام في ساو باولو دعوى يطالب فيها بمنع توزيع ترجمة كتاب "بيتر بان" لأنها، من وجهة نظره، تُعطي الأطفال فكرة خاطئة عن حكومة البرازيل وترسم في خيالهم صورة تبيّن البرازيل أدنى مرتبة من بريطانيا. ولا بد من الإشارة إلى أن مترجم الكتاب قد اعتمد في مقاربته منهجية الأقلمة فتداخلت في طيّات الكتاب البريطاني صور من الواقع البرازيلي السياسي والاجتماعي (Milton, 2004، p. 481-497).

٢.٤. اختيار اللغة المصدر واللغة الهدف

إن التدخل الأيديولوجي ليس أقل شأنًا وتأثيرًا في اختيار اللغة المصدر واللغة الهدف في عملية الترجمة. فقد شهد التاريخ العديد من الأمثلة التي تعززت فيها الترجمة من لغة ما إلى لغة أخرى لأسباب سياسية أو أيديولوجية، ولاسيما في ظل استعمار الدول وانتدابها لدول أخرى، وفي ظل الأنظمة المتطرّفة أيديولوجيًا. في هذا السياق، تعتبر كلّ من شافنر (Christina Schaffner) وباسنيه (Bassnett Susan) أن "الترجمة، وعلى الرغم من أنها غالبًا ما تكون خفيّة في المجال السياسي، فإنّها في الواقع جزء لا يتجزأ من العمل السياسي. فاختيار النصوص

التي تتم ترجمتها، واختيار اللغة المصدر واللغة الهدف، هو بحدّ ذاته قرار سياسي" (Bassnett, Schaffner, 2010, p. 12).

ويبدو هذا التأثير جليًا في عدد الترجمات الفرنسية التي نُشرت في تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية. حيث بلغ عدد هذه الترجمات حوالي ١٩ بالمئة من إجمالي حركة الترجمة، في حين وصلت هذه النسبة إلى حدود ٣,١ بالمئة في ظل الاحتلال النازي، ليحل الأدب الألماني، الذي شغل ٦٢ بالمئة من الكتب المترجمة في تلك الحقبة مكان الأدب الفرنسي (Popa, 2010, p. 36).

في الإطار نفسه، أشار تقرير صادر عن منظمة "هيومن رايتس ووتش" في العام ٢٠٠٩ تحت عنوان "إنكار الوجود، قمع الحقوق السياسية والثقافية للأكراد في سوريا" إلى أن الأكراد، وهم يشكّلون أكبر شريحة من الأقليات في سوريا، ممنوعون من التحدث باللغة الكردية أو التدريس بها أو نشر الكتب باللغة الكردية، إذ كانت الدولة السورية تمنع نشر الكتب باللغة الكردية، بل كانوا ممنوعين من تسمية أطفالهم بأسماء كردية. وأفاد التقرير بأن ذلك يتناقض مع القانون الدولي لحقوق الإنسان الذي يتيح للأقليات حرية ممارسة ثقافتها من دون أي تمييز، بما في ذلك استخدام لغتها الخاصة. بيد أن الوضع أخذ بالتغيّر بعد اندلاع الحرب السورية، إذ بدأت معالم حركة الترجمة من اللغة الكردية وإليها تتشكّل، ولو بوتيرة بطيئة. وهذا يشبه إلى حد كبير مقاربة الفيلسوف الألماني نيتشه حركة الترجمة من منظور "إرادة القوّة" (Servais, 2011, p. 19). في إشارة إلى أن الشعوب تترجم لتتقدم، لتتطور، لتهزم عدوًا، لتنشر عقيدة، بعبارة أخرى، لتزيد من قوّتها.

٣.٤. اختيار المترجم و/أو الكاتب

قد تسهم أيديولوجيا المترجم في عملية اختياره لتولي ترجمة نصوص محددة أو إقصائه عنها. إذ إن المؤسسات، لاسيما تلك التي تنتهج نهجًا يتّسم بالأيديولوجيا أو تلك التابعة لحزب معيّن أو لمجتمع ما، عادة ما تختار المترجمين الذين يتفقون إلى حدّ كبير مع توجهاتها الأيديولوجية.

فالسلطة كانت، على مرّ العصور، لها اليد الطولى في التدخل لاختيار المترجمين. ولطالما شجّعت هذا وأبعدت ذاك، أو لنقل أحيانًا شجّعت من يواليها وأهملت من لم ينل بركة السلطة المتمثلة بشخص الملك أو الخليفة أو الأمير أو الإمبراطور.

فعند تولي الملك الفرنسي فرانسوا الأول الحكم، واصل على سبيل المثال، جهود أسلافه في دعم عملية الترجمة، إذ اتّخذ سلسلة من الاجراءات التي من شأنها

تعزيز الترجمة، مثل تعليم اللغات القديمة. وقد شجّع الملك ترجمة الكتب من اليونانية على يد أشخاص "من حاشيته" (Ballard, 2013. p. 90). فالعديد من المترجمين في عهده كانوا من السفراء أو من مستشاريه. وفي عصره، أهدى المترجم جان مارتان مرّتين على التوالي ترجماته إما للملك نفسه، أو لأبنائه، أو حتى لأخته مارغريت (Cazauran, 1999, p. 24).

أما في العالم العربي، فإحدى أبرز تجليات ارتباط المترجم بالسلطة السياسية في عصر النهضة تبدو من خلال علاقة محمد علي باشا الذي حكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ و١٨٤٨، بالمترجم الأبرز في عهده، رفاعة الطهطاوي الذي تولّى منصب مدير مكتب الترجمة والذي ترأّس مدرسة الألسن في العام ١٨٣٦ التي كانت تعمل على تدريب الموظفين والتراجمة. وعلى الرغم من أهمية ما قام به الطهطاوي على الصعيد العلمي في تعزيز الحركة الثقافية في مصر، وساعده في ذلك قربه من الحاكم، فإنّ ذلك لم يحُل دون نفيه على يد الحاكم الجديد عباس الأول الذي أرسله إلى السودان بحجة تأسيس مدرسة، ما أدّى إلى إقفال مدرسة الألسن في السنة التالية. وإن دلّ إقفالها على شيء فهو خير دليل على أن حركة الترجمة في ذلك العصر ارتبطت بأهواء الحاكم وتطلّعاته الخاصة فكان نصيب الطهطاوي الإبعاد. غير أن الطهطاوي عاد بعد ذلك إلى مصر ليستأنف نشاطه في حقل الترجمة في عهد الخديوي إسماعيل حيث عمل على ترجمة القوانين الفرنسية إلى العربية (Tajer, 2014).

٤.٤. اختيار المصطلحات

أما من حيث اختيار المصطلحات، فيتجلّى التوجه الأيديولوجي للمترجم في المستوى المعجمي، عندما يختار مصطلحًا يمثّل عقيدة فكرية مختلفة عما يمثّله مصطلح ينقل المعنى عينه، مما قد يؤدّي إلى تغيير وجهة النص وتحييدها عما أراد الكاتب إيصاله للقارئ. فهل نعتبر المعارضين السوريين ثوارًا أو متمردين؟ هل نُبقي على اسم "إسرائيل" كما ورد في النص الإنجليزي أم نعتمد تسمية "فلسطين المحتلة"؟ وهل نشير إلى منطقة الخليج على أنها "الخليج الفارسي" كما قد ترد في النص الإنجليزي أم نعتمد تسمية "الخليج العربي"؟ وهل من الممكن أن يعتمد المترجم تسمية الخليج الفارسي في مقال ينشره في صحيفة عربية يقرأها جمهور عربي؟ إن هذه الأسئلة التي قد تبدو بسيطة تبيّن مدى دقّة عملية الترجمة ومدى سهولة تغلغل الطابع الأيديولوجي إليها، فمهما كان المترجم حياديًا سيتخذ موقفًا أيديولوجيًا، شاء ذلك أم أبى، وذلك من خلال عملية الاختيار بين مصطلح وآخر.

وقد يكون اختيار المصطلحات هذا مبنيًّا على قناعته الخاصة أو على توجّه المؤسسة التي يعمل فيها أو السلطة الحاكمة في البلاد أو حتى أيديولوجيا القارئ، فهو يُترجم ليُقرأ نتاجه، ولن ينجح في عمله إذا استفزّ جمهور قرائه من خلال اختيار مصطلحات تتعارض مع توجهاتهم الأيديولوجية.

٥.٤. كيفية مقاربة النص

يعتبر فريدريك نيتشه أن الترجمة استحالت في عصر الإمبراطورية الرومانية مرادفًا لتحقيق الفتوحات. إذ كان الرومان يعهدون في الدرجة الأولى إلى حذف اسم الشاعر ليحلّ مكانه اسم المترجم، فضلًا عن إهمال الطابع التاريخي للنصوص وإضافة إيحاءات لأحداث معاصرة. ويوضح الفيلسوف الألماني أن هذه الأعمال لم تدرج تحت خانة السرقة، بل إن الإمبراطورية اعتبرتها حقًا من حقوقها (Nietzche, 2011. p. 93).

ومن الأمثلة الأخرى على تدخّل السلطة في كيفية مقاربة النصوص المترجمة، حركة الترجمة في القرن الثالث عشر في عهد الملك ألفونسو العاشر في اسبانيا، حين كان هو السلطة الراعية للترجمة. ولم يكن يكتفي فقط بطلب نسخته الخاصة، بل كان يطلب تعديل الترجمات إن لم يستطع فهم ما يحتويه النص الهدف من مفاهيم وأبعاد. فلم يكن المترجم سيّد قراره في منهجيات الترجمة التي يعتمدها ولا في كيفية مقاربة النصوص، بل كان يعمل ضمن إطار تحدده معارف الملك وثقافته وقدرته على فهم الموضوعات المعالجة (Foz, 1988, p. 58-64).

إلى جانب ذلك، شجّع بطرس الأكبر، قيصر روسيا الخامس حركة الترجمة، إلا أن هذا التشجيع لم يفلت من القيود التي فرضها القيصر من موقعه السلطوي. إذ كان يضع بنفسه التعليمات التي يجب اتباعها أثناء عملية الترجمة.

٥. الخلاصة

لطالما نادت نظريات الترجمية بحياد المترجم المطلق، ووصفته بعضها بالخائن إن لم يؤدِ الأمانة كما استلمها من دون أن يترك بصماته عليها، حتى باتت تلك البصمات بمثابة نقطة ضعف يُحاسب عليها المترجم في حال عدم التزامه الحياد المُطلق.

ولكن، من الواضح أنّ بصمة المترجم تُطبع على صفحات نصّه بطرق عدّة. فتكون مرئية بأم العين واضحة المعالم أحيانًا، خفيّة غير مباشرة أحيانًا أخرى. فالمترجم قبل أن يستلّ قلمه، يقف حائرًا ما بين أيديولوجيا الكاتب وما قد يحمله

النص المصدر من أفكار، وبين أيديولوجيا السلطة، أكانت سلطة سياسية أو دار نشر أو غير ذلك، فضلًا عن أيديولوجيته الخاصة وأيديولوجيا القارئ الهدف. فأيّها يتبع؟ ولمن يدين بالولاء؟ وكيف السبيل إلى الخروج بنص يراعي المهنية ولا يتعارض مع ثوابت الترجمة وضوابطها وتأديته الأمانة التي أوكلت إليه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ألا ينبغي على المترجم أن يكون أمينًا للسلطة أيًّا كانت، سواء السلطة الحاكمة أو دار النشر أو المؤسسة الراعية للترجمة، حتى يتمكن من نشر ترجماته؟ أوليس حريّ به أن يكون أمينًا أيضًا لقارئ النص الهدف الذي يعوّل عليه لتلقّي رسالة النص ويعطيه ثقته؟ ألا يشعر هو كإنسان، بضرورة أن يكون أمينًا لمعتقداته وقناعاته؟

لو كنّا في عالم يتّسم بالمثالية، لأجبنا أنه على المترجم أن ينقل المُرسلة كما هي وأن يسعى جاهدًا إلى التزام الحياد، فلا تؤثر أي أيديولوجيا في ترجمته ولا يتأثر بأي سلطة أو بأفكار من خارج النص المصدر. بيد أن الواقع العملي يشير إلى عكس ذلك، حيث لا يبدو ذلك بالضرورة ممكنًا في جميع الحالات. من هنا يتّضح لنا أن صراعًا خفيًا يدور بين مفهوم الأمانة ومفهوم الأيديولوجيا. فكلما كان المترجم أمينًا للنص المصدر وتمكّن من عدم التأثر بالأيديولوجيات الثلاث الأخرى من زوايا المربع، كان أكثر حيادًا. بيد أن ذلك يبقى بعيدًا كل البعد عن واقع الحال. وبما أن مهمّة المترجم لا تقوم على كونه آلة تنقل الرسالة تمامًا كما هي، فلا بدّ من أن يتأثر النص الهدف على الأقل بأيديولوجيا واحدة غير أيديولوجيا النص المصدر أو كاتب النص.

ففي الواقع الميداني، ثمة تأثير واضح المعالم للأيديولوجيا في مجمل عملية الترجمة، سواء من حيث كيفية انتقاء النصوص واختيار لغة النص المصدر كما الهدف، أم من حيث اختيار المترجم، وما إلى ذلك من عوامل قد تتسلّل من خلالها أيديولوجيا من خارج النص المصدر إلى سطور النص الهدف.

وصحيح أن الحياد هو جوهر الترجمة، بيد أن الحياد المطلق يبدو أحيانًا كثيرة مستحيلًا، ليس لأن الترجمة لا تتمتع بضوابط مهنية كافية تحدد معيار حياد المترجم، بل لأن بعض الموضوعات المترجمة تضع مسألة الحياد على المحك. بيد أن الفرق بين مترجم وآخر، هو أن الأول قد يحاول قدر المستطاع الوقوف على الحياد وإبعاد أيديولوجيته أو أيديولوجيا راعي الترجمة عن النص، فيما يطلق الثاني العنان لأفكاره ومعتقداته فنراها واضحة وضوح الشمس بين سطور ترجمته.

RÉFÉRENCES

Ballard, M. (2013). *Histoire de la traduction : Repères historiques et culturels*. De Boeck.

Dickson, H. (1956). *Kuwait and her Neighbours*. George Allen and Unwin LTD, London.

Dickson, H. (1990) *Al Kuwait wa jāratuha*. Sahāra lil tibā'a wal nachr.

Dickson, H. (1995) *Al Kuwait wa jāratuha*. Traduction: Ftouh Abd Al Muhsen Al Khartach. Dar Al Salasil.

Dickson, H. (1990) *Al Kuwait wa jāratuha*. Sahāra lil tibā'a wal nachr.

Foz, C. (1988) *La traduction-appropriation : le cas des traducteurs tolédans des 12e et 13e siècles. Meta*, *1* (2), 58- 64.

Guillaume, A. (2016). *Idéologie et traductologie*. L'Harmattan.

Human Rights Watch. (2009) *Inkār al wujūd, kam' al-hukūk al-siyāsiya wal thakāfiya lil akrād fi sūriya*.

Lefevere, A. (1992). *Translation, Rewriting, and the Manipulation of Literary Frame*. Routledge.

Lefevere, A. (1995). *The Translator's invisibility: A history of translation.* Routledge.

Lefevere, A. (2003). *Translation: History, Culture: A Source Book*.Taylor & Francis.

Lefevere, A. (2008) *Al Tarjama wal sulta*. Traduction : Rami Al Jamal. Autorité générale égyptienne du livre.

Macherey, P. (2013). *Études de philosophie "française" : De Sieyès à Barni.* Éditions de la Sorbonne. Doi : 10.4000/books.psorbonne.106285

Milton, J. and Euzebio, E. (2004) *The Political Translations of Monteiro Lobato and Carlos Lacerda*. *Meta*, *49*(3), 481-497.

Munday, J. Cunico, S. (2007). Encounters and Clashes, Introduction to Translation and Ideology. *The Translator. 13*(2), 141-149. DOI: 10.1080/13556509.2007.10799235

Nietzche, F. (2011) *Le gai savoir*. Traduit par Henri Albert. Les Échos du Maquis,

Popa, I. (2010) *Traduire sous contraintes : littérature et communisme (1947-1989)*. CNRS Éditions.

Schaffner, C. and Bassnett, S. (2010). *Political Discourse, Media and Translation.* Cambridge Scholars Publishing.

Servais, P. (2011). *La traduction entre Orient et Occident, Modalités, difficultés et enjeux*. L'Harmattan.

Tajer, J. (2014) *Harakat al-tarjama fi misr fi al-karn al-tāsi' 'achar*. Fondation Hindawi.

Tymoczko, M. and Gentzler, E. (2002). *Translation and Power*. University of Massachusetts Press.

Van Dijk, T. (2006). Ideology and Discourse Analysis. *Journal of Political Ideologies*. *11*(2), 115-140. Routledge.